دون ان يُحاوِل من تلقاء ذاته ان يحسّن حالهُ . فنال هذا التحسين من غيره وهو لم يُظهر بعلامةٍ ما كونهُ عالماً بهذا التحسين او راغباً فيهِ كالشجرة التي يلوي الانسان اغصانها ويسعى بتشكيل زهورها كما يشاء . فعاملُ التحسين في الحيوان ليس هو فيهِ ومنهُ بل هو خارجاً عنهُ . لا يسعى وراء الكمال ولا يدركهُ وانّما هو مَسوقٌ اليهِ ... وبكلمة واحدة نقول قد ثبت ان اكمل الحيوانات ولو حصلت في اوفق الظروف وانسب الاحوال لا تعي شيئاً من امر ترقّيها ولا ترمي اليهِ بمشيئتها وادراكها(١ .

ترجمة يوسف الاوّل بطريرك الكلدان

١٦٨١–١٧٠٧

لباسيليوس عبد الاحد مطران آمد

توطئة

في مكتبة الكلدان في ديار بكر كرّاس صغير يحتوي على ترجمة حياة البطريرك يوسف الاوّل الذي كان مطراناً لسعرديا فارتدّ الى الكثلكة بعد ان ثبتت لهُ صحّة ايمان الكنيسة الرومانيّة فاقامهُ البابا اينوشنسيوس الحادي عشر بطريركاً على الكلدان الكاثوليك سنة ١٦٨١ فسكن مع خلفائهِ في آمد اي مدينة ديار بكر وكانت وفاتهُ سنة ١٧٠٧ (اطلب المشرق ٣ [١٩٠٠]: ٨٧٨–٨٨٠) . وقد لقي بارتداده عدّة ممن وصفنا احد تلامذتهِ باسيليوس عبد الاحد الذي اقام كاتب بطريركي على آمد فسُلّف سنة ١٧١٢ وتوفي سنة ١٧٣٧ . فهذا اذ كان واقفاً على كل تفاصيل سيرة معلّمهِ سطّرها في هذه الترجمة وهي اجمل اثر واصدق رواية لسيرة ذلك البطل الذي ثبت في الايمان مع ما قاساهُ من ضروب البلايا والاضطهادات كما سترى وذلك سنة ١٧١٩

ولنا على شهامة البطريرك يوسف الاوّل شواهد اخرى راقية الى عصرهِ منها ما كتبهُ السيد فرنسوا پيكه مطران سيزاروپل والقنصل لدولتهِ على حلب سابقاً لما مرّ في ديار بكر في اواخر ايّار سنة ١٦٨١ فاطرأ عليهِ ولتمّ في محامدهِ وكتب في ذلك الى مجمع انتشار الايمان والى قنصل فرنسة في حلب . وكان بودّنا ان نعرّب كلامهُ ورسائله لولا ضيق المكان (٢ . امّا السيرة

---

١) اطلب معجم الجدليّات A. d'Alès, Dictionnaire d'Apologétique, fasc. I. 1926.

٢) راجع ترجمة المطران فرنسو پيكه La Vie de Messire François Picquet Paris, 1732. pp. 359-369 ثمّ مذكرات الكفالير دارفيو Mémoires du Chevalier d'Arvieux. Paris, 1735. VI. 95-122

التي ننشرها فهي لم تُطبع حتى الآن وانما ظهرت ترجمتها في اللغة الفرنسوية لاحد الكهنة الكلدان في مجلة الشرق المسيحي Revue de l'Orient Chrétien :86, 1,66-900 وقد تصرّف بالاصل بعض التصرّف . اما نسختنا المنقولة عن الاصل في ديار بكر حيث نسخها يده الطيب الذكر المطران طيموثاوس عطار سنة ١٨٨١ فاهدانا اياها . اجزل الله ثوابهُ . وها نحن نروجها بحرفها مع اصلاح ما لا يُعيبها من ضبط كلمة او مراعاة قواعد الاعراب ل . ش

انّ مار يوسف الاول (١ بطريرك الكلدان كان مولده في آمد اي ديار بكر . وارتسم مطراناً على الطائفة النسطوريّة التي كانت في ديار بكر (٢ . غير انه في السنة ١٦٧٢ للمسيح تحرّك بإلهام روح القدس ان يرفع هرطقة نسطور . فقام عليهِ المعاندون ظاهرًا . واحتمل منهم الشتائم والحبوس والعذابات فلم يقدروا عليهِ . ولم يكن لهُ مساعد في هذا الحرب الشديد الّا الله وحدهُ ومريم العذراء والدة الله

فابتدأ اولًا يكرز على جماعتهِ وينبّههم وينهيهم عن التكلّم في الكنيسة وان يكونوا في بيت الله بالخوف والاحترام كما يجب . لانهم سابقًا كانوا يقفون في الكنيسة كوقوفهم في الاسواق والبازارات (٣ . وبعد ذلك كان يكرز على الاعتراف . ويقول : لا يجوز ان تتقرّبوا الّا وانتم نادمون معترفين بخطاياكم . وبعد ذلك رفع اسم نسطور من الكنيسة رفعًا كليًا

فلما سمع بذلك بطريرك النساطرة الشيخ اليًا (٤ الساكن في نواحي الموصل ارسل مكتوباً الى مار يوسف يستدعيهِ ان يمضي اليهِ قاصدًا ان يقتلهُ . فهو لم يرتضِ بذلك

---

١) انّ لفظة «مار» لفظة سريانيّة وكلدانيّة معناها السيد تُقدّم على اسماء البطاركة والاساقفة . اما تسميةُ يوسف الاوّل فناشئ عن نظر فانهُ كان سبتهُ على كرسي جاثالقة بابل الكلدان يوسف آخر رُقّي الى الدرجة البطريركيّة من السنة ٥٥٢ الى ٥٥٧ م . ومن هذا القبيل قد دُعي يوسف الذي نحن بصدده في بعض الكتب يوسف الثاني الّا انّ الانسب ان يُدعى يوسف الاوّل لانهُ كان كاثوليكيًا بخلاف الاوّل النسطوري واقام في آمد كما سبق . وخلفهُ اربعة بطاركة باسمهِ (اطلب تاريخهم في المشرق ٣ [١٩٠٠] : ٨٨٠ — ٨٨٣)

٢) تربّى يوسف على يد احد الكهنة الاتقياء اسمهُ عبد الاحد بن شلب ثمّ تردّد على المرسلين الكبوشيين الذي كانوا يبشرون بالايمان في ديار بكر فارتدّ الى الكثلكة بعد ان تبين صحتها وضلال النساطرة سنة ١٦٧٢ ٣) البازار لفظة فارسيّة بمعنى السوق

٤) هذا الشيخ ايليًا هو الثامن من اسمهِ خلف على كرسي بابل سنة ١٦٦٠ ايليًا السابع الذي كان ارسل صورة ايمانهِ الى الكرسي الرسولي سنة ١٦٥٧ فرجع ايليًا الثامن الى اضاليل نسطور وتوفي سنة ١٧٠٠ (اطلب المشرق ٣ [١٩٠٠] : ٨٢٧)

ولا راح لعنده لانهُ عرف بمكرهم . فلما نظر الشيخ اليًا انهُ لم يمض اليهِ جمع بعض اناس اشقياء سافكين الدم وتشاور معهم . وهم ارسلوا الى مار يوسف واحداً من شيوخهم لكي يوجه عن مقصدهِ . لكن الشيخ ما قدر يزعزع مار يوسف عن ايمانهِ ولا ان يعزل الرعية الصالحة من راعيها . واما البعض الذين تشوا هراطقة وما تبعوا مار يوسف كتبوا للشيخ اليًا : قُمْ تعال الى ديار بكر ونحن نساعدك

ولما رجع الشيخ الى الشيوخ الذين ارسلوهُ اشتدَّ غضبهم على مار يوسف واقنعوا الشيخ اليا ان يقوم من ديرهِ ويأتي الى ديار بكر . وقالوا لهُ : نجيءُ معك ونُعطي كل اموالنا للباشا ونقتل مار يوسف ونخلص منهُ . واجتمع مع الشيخ اليا مقدار خمسين رجلاً من الموصل ومن القُرى وركبوا حميرهم (١ واتوا معهُ . ولما وصلوا الى ماردين اعطى مقدار جزية (٢ الى الوَيْوَده (٣ لانه راكباً دخل الى الكنيسة . وبدأ يكشف غرضهُ ويزرع الفساد في ماردين . وذكر اسم قسطور ونزّل الصور من الكنيسة (٤ ويطل قسيساً كان رسمهُ مار يوسف وارسلهُ الى ماردين

وارسل الى آمد وطلب مار يوسف ليحضر بين يديه الى ماردين . ومار يوسف ما قبل راح لانهُ كان عارفاً بمكرهم انهم يريدون ان يقتلوهُ

ولما سمع باشا ديار بكر بقدوم الشيخ اليًا الى ماردين ارسل طلبهُ الى ديار بكر لانهُ سمع ان پاپاز (٥ النساطرة قد جاء وجاب معهُ غروشاً كثيرة . ففرح الباشا من هذا الخبر وارسل اليهِ بولوكين سكمان (٦ واتوا بهِ الى ديار بكر وعزّهُ ولبسهُ

---

١) كان ركوب الخيل في ذلك الوقت محظوراً على النصارى واليهود

٢) الجزية الذنب والاثم . اي أعطى مبلغاً من الدراهم يساوي مقدار ما يُفرض على مرتكب جريمة . ولفظةُ اراد «مقدار جريمته» والجريب يساوي ٣٨٤ مدًّا من الحنطة

٣) الوَيْوَده لفظة صقلبيَّة (Vaivode) معناها الرئيس وكانت تطلق على رؤساء الفلاح والملداف وقد استعملها الاتراك بمعنى رئيس الشرطة والمتصرّف

٤) النساطرة كانوا يكرمون الصور كبقيَّة الطوائف الشرقيَّة وفي كتبهم الطقسيَّة صور جميلة الى يومنا الأخير في القرون الاخيرة لوجودهم بين المسلمين والاكراد وبغضاً بالكاثوليك اهملوا اكرام الصور

٥) من اليونانيَّة (πάππος) وهو ابو الاب اي الجد يطلقها الاتراك على بطاركة واساقفة النصارى

٦) البلوك بالتركيَّة الفرقة من الجند . والسكمان والسكبان قسمٌ من الاقسام الثلثة التي كان يتألَّف منها جيش الينكشاريَّة . واللفظة فارسيَّة معناها المتولّي على كلاب الصيد .

قبّاً(١ كان يساوي مقدار مائة غرش (٢ وارسلهُ . فمضى وطرد مار يوسف من الكنيسة وضبط الكنيسة . وجعل يفرض قوانينهُ . ورسموا ان يذكروا اسم نسطور وحلّل زيجة اولاد العمّ والخال . وبطّل سنّة الاعتراف وصار حزن عظيم للمؤمنين . وكان وصوله الى آمد اي ديار بكر في شهر شباط (١٦٧٣)

فاما مار يوسف فمضى وسكن في بيت قسيس من المؤمنين . فارسل الشيخ اليا وطلب مار يوسف ان يجيء ويقدّم لهُ الطاعة ويتصالحا . فاجاب مار يوسف وقال: نجمع الجماعة كلها ونضع بالوسط الانجيل وكل واحد منّا فايثبت كلامهُ من الانجيل . فردّ لهُ الشيخ اليا الجواب قائلًا : ما هو هذا الذي اريد . بل اريد ان تقبل اسم نسطور وتنكر ان مريم هي والدة الله . فمار يوسف ردّ لهُ الجواب وقال : قولوا للشيخ اليا : انا اقبل ان اتعذب واموت وما انكر مريم بانها والدة الله . ولا اقبل نسطور

فتشاور الشيخ اليّا مع شيوخهِ فاشتكى على مار يوسف عند الصوباشي (٣ . فآمر الصوباشي بوقوف مار يوسف والشيخ اليا بين يديهِ . وصار مجادلة كثيرة قدامهُ . فمار يوسف كان فصيح اللسان وثبّت من الانجيل ومن العقليّات ان الشيخ اليّا وتابعينهُ هم مخالفون قول الانجيل والرسل والكنيسة . وما هم بفعلهم لا نصارى ولا يهود ولا مسلمين . حتى تعجّب الحضّار . فالصوباشي اطلق مار يوسف لحال سبيلهِ

فعند ذلك الشيخ اليّا ورفقاؤهُ اعطوا دراهم للمتسلّم (اي الوالي) وحبسوا مار يوسف وبعد يومين اخرجهُ المتسلّم من الحبس وارسلهُ الى القاضي لكي يتحاكموا واعطوا ايضاً الى القاضي رشوةً عظيمة لكي يجري بقصدهم اي ليحكم على قتل مار يوسف . وقال الشيخ اليا : ان هذا كان تلميذي واليوم يخالف امري ويتمرّد عليّ وما يطيعني . فقال القاضي لمار يوسف : لماذا ما تطيع معلمك وتخالف كلامهُ . فاجاب مار يوسف قائلًا : اولًا هذا الشيخ ما هو معلّمي ولا قرأت عندهُ ولا يعرف العربي ولا التركي . ثانياً انهُ ما يحفظ كلام التوراة ولا الانجيل . ولا قوانين الكنيسة الواحدة الجامعة المؤسسة من عيسى المسيح

---

١) اراد « قبّا » وهي كلمة فارسيّة معناها الجبّة والرداء

٢) كان الغرش في ذلك الوقت يساوي ريالًا . واللفظة المانيّة (Gruschen)

٣) الصوباشي عند الاتراك هو مثل كومسيار البوليس في عهدنا ورئيس الشرطة

فبعد مجادلات كثيرة امر القاضي : ان كل واحد منكما يكتب اعتقاد دينهِ ويوم الغد تحضران عندي . فقال مار يوسف : « ايها القاضي العادل . فليكتب اولاً الشيخ الياً اعتقادهُ لكي نقدر نحكم في اي شي هو مُدَّعٍ وفي ايّ شي انا مخالف لهُ . وهل الشي الذي انا مخالف لهُ يخالف ايضاً الانجيل ام يوافقهُ . وانت ايها القاضي تعتبر الانجيل اهل ترضى اني اخالف الانجيل واتبع شهوة فرد انسان » . فامر القاضي ان يكتب الشيخ اليا اولاً واطلقهما

غير ان الشيخ كان يخاف ان يُظهر اعتقادهُ وما كان يعرف ماذا يكتب

ولما كان غد ذلك اليوم صباحاً ارسل الشيخ الياً مبلغاً كبيراً من الدراهم الى القاضي كي لا يلزمهُ بالسؤال عن اعتقادهِ بل يُلزم مار يوسف . وعند نصف النهار حضرا امامهُ فسأل القاضي مار يوسف : « مَذْهَب مَنْ تتبع انت ؟ فقال مار يوسف : « انا اتبع المذهب الذي علَّمهُ المسيح الى رسلهِ ووضعهُ في كنيستهِ الجامعة . ونسبي كلداني » . فسأل القاضي من الشيخ اليا وجماعتهِ : انتم مذهب مَن تتبعون . فقالوا : نحن نساطرة ونتبع نسطور . فقال مار يوسف : « احكم انت ايها القاضي . هل يجوز ان أترك المسيح وكنيستهُ واتمسك بنسطور . ومَنْ هو هذا نسطور » . فغضب الشيخ اليا وجماعتهُ وقالوا : « انت ما عليك منّا ومن مذهبنا . فنحن يهود . انت لماذا لا تطيع شيخنا وكبيرنا » . فحالاً مار يوسف تنحّى عن جانب وقال للقاضي : « يا مولانا القاضي . ان هولاء يقولون بأنهم يهود . وانا ليس لي دعوى مع اليهود . انا نصراني مسيحي . اترضى ان اكون يهودياً » ! عند ذلك نظر القاضي الى الشيخ اليا وجماعتهِ بوجه الغضب . فخافوا كثيراً فأشاروا بالرمز الى القاضي برشوة اكبر لكي لا يعكس امرهم . فلمّا علم القاضي . سكت والتفت نحو مار يوسف وقال : جاوبني ما هو دينك ؟ قال : « انا متمسك بالدين الذي علَّمهُ المسيح عيسى الى كنيستهِ الجامعة . والكنيسة ما تقبل نسطور بل قد لعنتهُ لانهُ ضادد الانجيل » . وقال لهُ القاضي : فاذاً لست انت نسطورياً . فقال : « حاشا ان اكون نسطورياً . انا مسيحي اي عيسوي وابن كنيستهِ الكاثوليكية ونسبي من الكلدان . وانت ايها القاضي ألست تعتبر عيسى » . فقال : نعم . قال : « اتعرف من هو نسطور » . فقال : لا . فجاوب مار يوسف : « وانا كذلك ما اعرف نسطور وما هو »

فارسلهم القاضي ثانيةً الى الصوباشي لكي يحاكمهم . فلمَّا وصلوا اليهِ قال الشيخ ايليا لمار يوسف ان يقرّ بانهُ نسطوري . فاجاب مار يوسف وقال : « انني قد قلتُ لك بانني مسيحي كاثوليكي لا أقبل تعاليم نسطور قطعاً » . وبعد مجادلات كليَّة ارسلهما ايضاً الصوباشي الى القاضي . فالقاضي سأل مار يوسف وقال : انتم النصارى اذا ما قبلتم تعليم نسطور تُحسبون مذنبين ام لا . ولمَّا القاضي سأل هذا الكلام كان اناس كثيرون حضَّارًا من جماعة اليعاقبة والارمن المشقّين . فقال مار يوسف : يا مولانا القاضي اسأل الحاضرين عن هذا . فجاوب اليعاقبة والارمن الهراطقة وقالوا : كلّ من يحبّ نسطور ويقبل تعليمهُ فهو مذنب لانهُ أفسد ايمان المسيحيين وضادد الابهات . فامرهُ القاضي ان يعطي خطَّ يده عن اعتقادهِ في المسيح . وكتب مار يوسف بيدهِ : اني اقرّ واؤمن بان يسوع المسيح هو ابن الله الحي وانَّ بهِ اقنوماً واحداً وطبيعتين . فلمَّا نظر الارمن واليعاقبة ان مار يوسف يقرّ بطبيعتين تركوهُ وخرجوا . فالقاضي كتب الاعلان : ان مار يوسف ما يقبل نسطور وما هو نسطوري . وطردهم من قدامهِ

ومضى الشيخ ايليا وجماعتهُ ورشوا المتسلّم ايضاً لكي يحبسهُ . فحبس المتسلم مار يوسف وامرهُ ان يُطيع الشيخ اليَّا ويصير نسطوريًا . فقال مار يوسف : « يا مولانا لو قطَّعتني إرباً إرباً ما اترك ديني الكاثوليكي » . وبقي محبوساً ثلاثة ايَّام . فاما محبّرهُ فأعطوا دراهم الى المتسلّم واخرجوهُ من الحبس

فبدأ مار يوسف يدور الليالي في بيوت المؤمنين الكاثوليقيين المشتتين من خوف الظلم والجرائم . وكان يكرز عليهم ويثبتهم على اعتقاد الكنيسة الرومانية ويشجّعهم ويقوّي قلوبهم . ثم انَّ الهراطقة اشتكوا على قسيس كان تابعاً لمار يوسف وكان يجول معهُ فحبسوهُ . وجماعة المؤمنين اعطوا شيئاً جزئيًا للمتسلّم وخلّصوا القسيس ايضاً

غير انهُ بعد عشرين يوماً جاء باشا جديد الى ديار بكر . وشيوخ الهراطقة انتهزوا الفرصة وطلبوا منهُ ان يقطع يد مار يوسف او يدفعهُ لهم او يعذبهُ بعذاب الموت او يمتهُ دفعةً ولذلك اعطوا لهُ رشوةً كبيرة لهُ ولكاهياهُ (١ . وارسل الباشا حبس مار

---

١) الكاهيا والكاخيا والكهيا والكخيا كلّها من التركيَّة كَخيا وكتخدا ومعناها الوجيه والمدبر ومعتمد الوالي وكاتب سرّه

يوسف وزنجروه (١ بين اللصوص والمجرمين . وطلب مار يوسف من الباشا ان يقف امامهُ ويبرّر نفسهُ من تهمات المشتكين عليهِ ويثبت بان الديانة الكاثوليكية التي هو متمسك بها هي الحقيقية . وانّ النسطورية فاسدة

فما قبل الباشا . لانهُ كان ارتشى من النساطرة بدراهم كثيرة . بل أمر ان يعذّبوه في الحبس ازيد من الاول . فحصل فرح للجهتين اعني للنساطرة لانهم كانوا يرجون بان مار يوسف سيُقتَل في الحبس . ولمار يوسف لانهُ لاجل المسيح استحقّ ان يُعذَّب وينحبس ويُقتل

وكان انحبس مع مار يوسف ازيد من مائة شخص من المؤمنين . وكان مار يوسف يعزّيهم ويقوّيهم في الحبس ويكرز عليهم كي يحتملوا ويصبروا على المضايقة والعذاب ويتّكلوا على الله ووالدتهِ الرحيمة . وكان البولوك باشي (٢ يضربهُ بالعصيّ كل ليلة خمسين عصاً ويضعهُ في الطمرغ (٣ وهو كان شاكرٌ الله ومحتملاً كل هذه الاوجاع وما كان يفتر عن الصلوة ابداً . ولما كان في هذا الجهاد كان المؤمنون يجتمعون بين بعضهم باختفية في احد البيوت ويصلّون لاجل راعيهم ولاجل اخوتهم المحبوسين

فقامت يوماً امرأة بينهم وو بّختهم قائلةً : «هذه ايام كثيرة وراعينا في الزناجير وتحت الضرب وانتم حتى متى تسكتون ساكتين . عندي ولدان وليس عندي دراهم . اعطيكم ولديّ . بيعوهما واعطوا ثمنهما في تخليص راعينا الصالح » . فخجلوا من كلامها وتشجّعوا . وقصدوا الباشا والتمسوا منهُ بإلحاح ان يخرج مار يوسف من الحبس ويتحاكم مع خصمهِ . فلمّا سمع الهراطقة ذلك قدّموا الى الباشا الف غرش لكي لا يصغي الى الكاثوليك بل يقتل مار يوسف لانهم قالوا : قد أفسد انجيلنا ورفع منهُ اشياء كثيرة

واما الباشا لكي يمسك حجّة بيده على قتل مار يوسف تمسّك بقولهم بان مار يوسف أفسد الانجيل ولذلك امر ان يأتي امامهُ الشيخ اليا وكذلك مار يوسف . ولمّا حضرا قال الباشا لمار يوسف : لماذا انت غيّرت الانجيل ورفعت منهُ بعض اسماء

---

١) اي قيّدوهُ بالزنجير اي بالحديد والسلاسل ٢) البولوك باشي اي رئيس الفرقة العسكريّة

٣) الطمرغ وبالتركيّة الطمرجة آلة عذاب كانت مركّبة من جسور غلاظ ذات براغي يجعلونها فوق الانسان وتحتهُ فيعصرونها بواسطة البراغي والزناجير حتّى تتفتّت العظام

وكلمات؟ فقال مار يوسف: «انا ما أفسدتُ قطّ الانجيل ولا رفعتُ منهُ شيئاً. بل كتاب الصلوات هم كانوا وضعوا فيهِ بعض اسماء مخالفة قد رفعتُهم». لان مار يوسف كان غطّى اسم نسطور وألصق ورقاً على اسمهِ وعلى بعض الفاظ تدلّ على هرطقة نسطور. لكي لا تُقرأ

فلمّا نظر الباشا انه لا يوجد اثبات على مار يوسف بانهُ أفسد الانجيل غضب لانه كان يريد يجبر خاطر الشيخ اليّا ويقتل مار يوسف لسبب الرشوة التي كان اخذها. فامر من جديد بحبس مار يوسف بين اللصوص والقتلة. وفي ذلك الحين تفرّق عنهُ جميع اصدقائهِ ومحبّيهِ لسبب خوفهم من الباشا ومن الشيخ اليّا. واما مار يوسف فسلّم امرهُ الى السيد المسيح والى والدتهِ مريم العذراء عليها اشرف السلام. وبقي في السجن المتن والزنجير في رقبتهِ والقيود في رجليهِ ويديهِ بين الاكراد والمجرمين

ولمّا نظر الشيخ اليّا وجماعتهُ انّ الباشا ما قتل مار يوسف رشوا السجّان لكي يجلدهُ ويعذّبهُ بنوع قاسٍ حتى يموت تحت الضرب. والسجّان بعد ما ارتشى ابتدأ في عذاب مار يوسف وكان يضربهُ بغير رحمة وبقساوة لا تُحتمل. وكان مار يوسف صابراً على هذه كلها في حبّ المسيح. وما كان يخرج من فمهِ الّا هذا الكلام: «يتمجّد اسمك يا رب. قوّ ايماني يا رب». وبأحكام الله الغير المدركة: رفع السجان بغتةً عينيهِ في ليلةٍ ما حين كان يضربهُ الى السقف واذا بتراب سقط منهُ فيهما. وحالاً ألقى العصاة من يدهِ وبدأ كالمصروع يزعق ويصرخ من الم وجع عينيهِ حتى تعجّب كلّ المحبوسين. فخرج من السجن ومضى واخبر البولوك باشي. وهذا مضى الى الباشا وقال لهُ: «ان هذا الطران غير مذنب وقد تعدّينا عليهِ. واخاف ياسيدي ان الله يقاصصنا لاننا ظلمناهُ»

وفي الحال ارسل الباشا وطلب الشيخ اليّا امامهُ واخرج مار يوسف ايضاً وارسلهما الى القاضي لكي يحكم عليهما بالشرع. فاجتمع كلّ المومنين الى المحكمة حتى صاروا مقدار ٣٠٠ نفس لينظروا المنتهى. فادّعى النسطرة بان مار يوسف قد بدّل الانجيل. فجاوب مار يوسف قائلاً: «هذا الانجيل معي. انظروا أمما يوافق انجيلهم. انظروا هل يوجد فيهِ اسم نسطور. وانا ما رفعتُ اسم نسطور الّا من كتب الصلوات. المكتوب من اناس شتّى». فسأل القاضي الحضّار: هل يوجد اسم نسطور

في الانجيل ؟ فقال المؤمنون : « كيف يمكن ذلك . لان نسطور قد وُلد بعد الانجيل باربعمائة سنة وهو نسطور نفسهُ الذي خالف تعاليم الانجيل ولهذا حرمتهُ الابهات ونفوهُ من بين المسيحيين ولذلك نحن لا نقبل نسطور » . فقال القاضي : اذا كان الامر كذا ان هذا المطران ليس عليهِ ذنب

فحزن الشيخ اليًا وقال : « يا مولانا القاضي ان هـذا الرجل بدّل دينهُ وصار فرنجي (١ وفي نيتهِ ان يصير بطركاً بقوّة الفرنج » . فقال القاضي : « ان يصير فرنجي او ما يصير هذا مـا هو ذنب ديني » . ثمّ قال القاضي للذين تبعوا مار يوسف : هل انتم تقبلون نسطور ؟ اجابوا جميعهم : « نحن ما نعرف نسطور ولا نقبلهُ . نحن سريان الشرق اي كلدانيون . واذا يسمونا باسم فرنجي هذا خلاف الحق بلا سبب » . فقال لهم القاضي : اي واحد تريدون من الاثنين مار يوسف ام الشيخ اليًا ؟ فمن خوفهم سكتوا . فقال واحد من القسوس : نريد الشيخ اليا . فاجاب مـار يوسف وقال : يا مولانا القاضي ان هذا القسيس ليس مسموعـاً كلامهُ ولقد تقاصص خمس مرات من الحكّام لسبب سيرتهِ الرديّة وذنوبهِ

فقام شمّاس من تبّاع مار يوسف وقال : « يا مولانا القاضي ان كنت تسأل من الاغنياء والفقراء والرجال والنساء والكبار والصغار فردًا فردًا تراهم كلّهم يريدون مار يوسف ولكن الآن هم ساكتون لانهم يخافون من الشيخ اليًا . لان هذا شيخ اليًا قد قال : « جبتُ معي اربعين كيساً من الدراهم (٢ وكلّ من يحامي عن مار يوسف اهلكهُ مع بيتهِ وما ابطل حتى اهلك مـار يوسف » . فقال القاضي للشماس : اتقدر تثبت كلامك ؟ قال : « نعم . انا اثبتهُ امام خمسين شاهداً » . فتعجب القـاضي وامر بتخلية مار يوسف وكان يؤمل ان الشيخ اليًا يعطيهِ ايضاً لكي لا يخلّي مار يوسف . ولكن الشيخ اليًا كان نقد ما عنده في الحاضر

ثم بعدهُ حكم القاضي وكتب : ان مار يوسف المطران يبقى في آمد ويحكم على ديار بكر وماردين وكل نواحيها . وان الشيخ اليًـا حالاً يرجع الى الموصل ولا

---

١) كان الناطرة وغيرهم من اعداء الكنيسة الرومانيّة اذا قصدوا الايقـاع باحد الكاثوليك اتّهموهُ زورًا عند الاتراك بانّهُ فرنجي لما كان يوجد من العداء والحروب بين الدولة والفرنج ٢) كان الكيس يساوي خمسمائة غرش

يتجاسر يحكم على المسيحيين في ديار بكر وماردين . ومار يوسف وجماعتهُ اخذوا الامر وشكروا الرب . ورجعوا من المحكمة بفرح الى قصر الباشا وعرّفوهُ حكم القاضي . حينئذٍ طلب الباشا من مار يوسف الفين غرش كي يلبسهُ الخلعة وينصبهُ مطراناً كالاول على الكلدان في ديار بكر وماردين . فمار يوسف ما كان عندهُ ولا بارا . فقال : يا مولاي مـا عندي شي اعطيه . قال : اذهب ودبّر وجيب . حينئذ الپادري يوسف رئيس الكابوجيين (١ في ديار بكر لمـّا سمع بما امر الباشا جمع المؤمنين وترجّى منهم لكي يجمعوا بينهم هذه الدراهم ويعطوهـا دَيْناً الى مار يوسف الى ان يسهّل لهُ الرب ان يوفيها لهم . فارتضوا واعطى كلٌّ واحد على قدر حالهِ . وقدّموها الى البـاشا . والباشا البسهُ الخلعة وارجعهُ الى بيعتهِ ودخل الى كنيسة مار فثيون الشهيد بفرح وسرور

ورجع الشيخ اليـأ الى قرية عين تنُّور (٢ حيث اكثر الكلدان كانوا نساطرة وتشاور معهم كي يشكروا مار يوسف ثانيةً ويعطوا دراهم حتى يقتلوهُ . فكتبوا عرضحال وسلّموهُ بيد نساء شريرات وبواسطتهنّ قدّموه الى الباشا . فالباشا من يتهِ تعالى ما قبل العرضحال وطرد النسـاء . وامر الشيخ اليأ ان يرجع حالاً الى الموصل وارسل معهُ فرد جاويش حتى يطلع من ارض ديار بكر وماردين . واطلق جميع المحبوسين الذين كانوا مع مار يوسف

واماّ مار يوسف فبعدما رجع الى الكنيسة اشتملتهُ اوجاع مختلفة حتى قارب الموت . وبعد ان تعافى بزمان قليل انعزل الباشا وجاء متسلم جديد الى آمد . وكان الشيخ اليأ وصى الخراطقة النساطرة : اذا انعزل الباشا وجاء غيرهُ اعملوا كلّ ما تقدرون

---

١) الپادري اي الاب لفظة ايطالية (padre) كانوا يطلقونها على المرسلين اللاتينيين . وهذا الاب يوسف هو المعروف يوسف دي رويلي (P. Joseph de Reuilly) الذي قتـل شهيـدًا في ديار بكر سنة ١٧٠٧ (راجع تاريخ الكبوشيين للاب هيلار : P. Hilaire de Baranton La France Catholique en Orient, p. 193-197

٢) عين تنُّور قرية صغيرة غربي ديار بكر على مسافة نصف ساعة منها وهي تُدعى اليوم علي پوار او علي پونار وكان النساطرة يسكنونها سابقاً ثمّ خلتهم الكلدان الكاثوليك فبقوا فيها الى السنة ١٨١٥ حيث هجم عليهم الاكراد فقتلوهم ولا تزال آثار كنيستهم على اسم مار قرياقوس باقية الى يومنا

من الضرر لمار يوسف وانا ارسل لكم كلّ ما تصرفون من المال . فمضى كم واحد الى المتسلم الجديد وقرّروا لهُ ثلاثة الف غرش كي يحبس مار يوسف . فحالاً الباشا الجديد أرسل وطلب مار يوسف . فقام من الفراش لانهُ كان مريضاً ومضى وحالاً حبسهُ الباشا في مكان مظلم والزنجير في رقبتهِ والقيود في رجليهِ ويديهِ . والرب اعطاهُ الشفاء والصبر في الحبس . والمراطقة ارسلوا واحداً اسمهُ داوود عند الشيخ اليًا ليرسمهُ مطراناً على ديار بكر ويرسل معهُ دراهم لكي يعاكسوا امر مار يوسف ويقتلوهُ

وفي تلك الاثناء اتى مطران نسطوري من القدس ذاهباً الى بلاد أورمي فأتى بهِ النساطرة الى الباشا والبسهُ الخلعة وأقاموهُ عليهم مطراناً الى ان يجيء داوود الذي أرسلوهُ الى الموصل . وبعد ذلك قالوا للباشا ان يطلب من مار يوسف ورقةً او يتنازل عن مطرنيتهِ او ان يُسلم اذا ادّعى في المطرنيّة او ان يعطي لهم دراهم مقدار ما يطلبون لكي يقبلوهُ رئيساً . فالباشا استدعى اليهِ مار يوسف وطلب منهُ هذه الشروط . فجاوب مار يوسف قائلاً : « اني ما أُسلم قطعاً ولو مزّقتني إرباً اربا . ولا يجوز لي ان اعطي لهم دراهم لكي يقبلوني رئيساً . وما اجوز عن مطرنيتي على الذين يتبعوني لاني شرعيًا قد صرت مطرانهم من طرف الله » . فغضب الباشا عليهِ وارسلهُ الى القاضي وامر ان يأخذوا منهُ غصباً ورغماً عنهُ ورقةً يختم فيها على اسلامهِ اذا ادّعى بالمطرنة . فاخذوهُ عند القاضي

فمار يوسف من جهة كان محبّذاً على ان لا يعطي كذا ورقة ابدا ومن جهة اخرى كان متحققاً انهم سيعذبونهُ عذاباً شديداً للغاية . وسلّم جميع امورهِ بيد الله واتكل على شفاعة العذراء والدة الله . وفي الطريق كان يصلّي ويطلب من يسوع المسيح ان يساعدهُ . ومن كثرة الضربات التي كانت تنزل على رأسهِ في الطريق اظلمت عيناه لان المراطقة كانوا حولهُ مثل السباع الضارية يضربونهُ ويشتمونهُ بكل انواع الشتائم المرّة ويعيّرونهُ ويهينونهُ . ومن شدّة الاوجاع وألم قلبهِ بقي جسدهُ مثل النار وصدرهُ يلتهب وافكارهُ في عذاب الليل المزمع . وكان يشجّع ذاتهُ كي لا يُظهر ضعفاً امام الاعداء . وكل اتكالهِ كان القاهُ على مريم العذراء كي تخلّصهُ من شر المراطقة

ولما وصلوا الى المحكمة نظروهـا خالية لان القاضي والنائب كانا خرجا الى خارج المدينة للضيافة والتنزه . فأخروا الـدعوى الى غير يوم . وهذا ما صار الأمن أحكام الرب حيث تأخر الشرّ . ومار يوسف ارجعوهُ الى الحبس والاشرار لم يكفّوا عن سوء فعلهم . ومار يوسف يقاسي الاوجاع الجسديّة وكان الدم يسيل من بطنهِ

امّا النساطرة فكان بقي عليهم مقدار وافر من الدين وتحيّروا في امورهم . لأن داوود مـا كان رجع لكي يساعدهم . فخافوا من الباشا والتزموا ان يخرجوا مار يوسف من الحبس حتى هو يجمع لهم من بين الجميع دراهم . ولذلـك اخرجوهُ من الحبس وروّسوهُ عليهم . وهو لكي يظهر لهم محبّة الديانة الكاثوليكية اهتمّ وجمع المال وقسّمهُ على الجماعة ووفى دينهم

وبعد ما انوفى الدّين الذي كان عليهم حضر داوود مرسوماً مطراناً من الشيخ الياً عليهم . فرشا الحكّام فعمي قلبهم بالرشوة وعاد النساطرة الخوَنة فقبلوهُ وباس الباشا عزلوا مار يوسف مرّة اخرى من الكنيسة واجلسوا المطران داوود

فلمّا نظر مار يوسف ان الاضطهادات من كل جهة احاطت بهِ وليس لهـا نهاية عزم ان يزور قبر مار بطرس ومار بولس في رومية وباقي الاماكن المقدّسة . وكانت سنة اليوبيليون (١ على عهد اقليميس البـابا العاشر . وكان يؤمل ان تصير لهُ بعض مساعدات وتشفى ايضاً من امراضهِ . فوصل الى رومية باتعـاب شديدة وتمّ بها سنة وخمسة اشهر . ومـا ساعدهُ احدٌ في رومية لانهم ظنّوا انهُ مثل بقية المطارين الذين قصدوا رومية ووجدوا المساعدات ورجعوا وما عمـلوا شيئاً . وقام ليرجع خائباً الى بلادهِ وهو خائف جدًّا لان الحكـّام يريدون دراهم والهراطقة مستعدّون ان يقتلوهُ . وكان الحزن في قلبهِ من جهة الذين تبعوهُ لئلّا ينظرهم آثمين ويخـاف ان ينقلبوا من الضعف ومن الشيطان . فحوّل امرهُ الى الربّ والى مريم العذراء .

فاتفق من إحسان الله ومريم العـذراء انهُ تعارف مع مطران فرنساوي اسمهُ فرنسوا بيكاي (٢ فهذا اعطاه كم كيس من الدراهم . ولما جـاء الى دياربكر

---

١) اليوبيليون هو اليوبيل اي الغفران الكبير اصلهُ من العبرانية . واليوبيل المذكور كان منحهُ البابا اقليميس العاشر سنة ١٦٧٥

٢) راجع ما قلناه في التوطئة

استدعاهُ الوالي وطلب منهُ كم كيس دراهم . فاعطاهُ ودخل الكنيسة وضبط الجماعة كما الاول وأجود وأخيَر . وبدأ يكرز ويعلّم تعاليم الكنيسة الرومانية . وهرب المطران داؤود

ولكن بعد سنة رجع ايضاً هذا المطران الهرطوقي ورشا باثني عشر كيساً للباشا وللقاضي ولاشراف البلد ولبس الخلعة وجاء الى الكنيسة وضبطها وعزل مار يوسف . وامّا مار يوسف فمضى واختفى في بيت واحد من المؤمنين مقدار خمسة اشهر وكان ينتظر الفرصة المعيّنة من الرب لنجاتهِ . وبعد خمسة اشهر انعزل الباشا وجاء باشا اخر ومضى اليهِ مار يوسف فالبسهُ الباشا الخلعة من دون معارضة واتى وضبط الكنيسة ففرحت جماعتهُ واصدقاؤهُ ومحبُّوهُ فرحاً عظيماً

وابتدأت الامور تصطلح في حقهِ . وبدأ الرب يعطيهِ التسلية جزاء عن ثباتهِ هذا العظيم . والهراطقة الذين ضادّدوهُ انتقم منهم البارئ تعالى اشدَّ الانتقام فمنهم ماتوا ومنهم ابتلاهم الله بالفقر حتى انَّ مار يوسف كان يتصدَّق عليهم . والبعض تنوَّرت عقولهم واهتدوا الى الايمان . وداوود المطران النسطوري العسكري انهزم الى مصر ولم يُعرف لهُ اثر الى هذا اليوم

ثمَّ ان مار يوسف رفع اسم البطريرك الشيخ اليا من القدّاس ووضع اسم البابا خليفة مار بطرس ورفع كليًّا اسم نسطور من ديار بكر . والشيخ اليا ايضاً تيقَّن بانَّهُ ما عاد يقدر على مار يوسف فتركهُ

وبأحكام الله تعالى اتى الى ديار بكر ماضياً الى العجم ذاك المطران الفرنساوي السابق ذكرهُ (١ فلما نظر جهاد مار يوسف وغيرتهُ على الايمان وكل الجماعة قد صارت قاثوليقية فرح كثيراً . وأرسل مكاتيب الى المجمع المقدس يمدح فيها جهاد وغيرة واستقامة هذا المطران مار يوسف المعترف بالايمان القاثوليقي وطلب من المجمع ان يقيموهُ بطريركاً على جميع المسيحيين الراجعين من النسطرة الى الكاثوليكية في الشرق . فالمجمع المقدس أصغى الى هذا الالتماس وقداسة البابا ارسل لهُ البالیون وثبَّتهُ بطريركاً وصار يسمّى مار يوسف الاول ويُذكر اسمهُ في الصلوات . والرب ينجح امورهُ واراحهُ من اعدائهِ

١) اي المطران فرنسوا پيكه . وقع ذلك سنة ١٦٨١ (راجع التوطئة)

وشاع صيتهُ في الشرق كله وانتدأت ان تقصدهُ جميع الطوائف لكي تتعلّم منهُ وتأخذ ارشاداتهِ وما كان يفتر قط ليلاً ونهاراً وهو يعلّم قواعد الدين وارجع كثيرين من هراطقة اليعقوبيين والارمن والروم . وفي ديار بكر ما كان يوجد كنيسة كاثوليكية الّا كنيسة الكلدان التي فتحها وثبتها في الدين الكاثوليكي بدمهِ وتعبهِ وعذاباتهِ ونظر اخيراً بان الكل كانوا يخضعون لهُ ويلتئمون تحت رعايتهِ

وكان يقول دائماً في كل حين بان العذراء مريم هي صارت السبب والمحامية والمنجّحة هذا الايمان الفاتوليقي ولولا شفاعتها وحمايتها لما كان ثبت ولا دقيقة على ما احتمل من اشدّ الظلم والقساوة والعذابات . وكان يقول للشعب دائماً : كل من يحبّ ان يكون محبوباً عند يسوع فليحب العذراء مريم . وكل من يريد ان ينتصر على اعدائه المنظورين والغير منظورين فليتمسّك في العذراء مريم . والذي يكون مستعدّاً ان يسفك دمهُ حبّاً بها فلا بدّ انّها تنجيه من الخطية ومن الاعداء وتُثبتهُ في الايمان الفاتوليقي وتقودهُ الى الملكوت السماوي عند ابنها يسوع . وكان دائماً يختم كرازتهُ (١ في تبجيل ومديح العذراء مريم . وكل دفعة كانوا يذكرون اسمها امامهُ كان يحني رأسهُ الى صدرهِ . وقد شاهدناهُ اوقاتٍ كثيرة لمّا كانوا ينكرون امامهُ والديتها لله او بتوليتها او بعض فضائلها كان وجههُ يلتهب مثل النار ويخفق قلبهُ من شدّة كدرهِ وحزنهِ وحالاً من دون مبالاة الخوف او الحرمة كان ياخذ في حمايتها وينصح ويوبّخ ويحث ويجادل ويُقنع المتكلّمين في حقّها على غلطهم وكان يعتبر ويمدح الذين كانوا يعتبرون ويمدحون العذراء مريم . . .

وبعد ما اصطلحت لهُ الاحوال واستقامت لهُ الامور مقدار عشرين سنة رسم قسوساً وشمامسة ورفع عوائد كثيرة ادخلها المراطقة . واتفق ان الرب ارسل لهُ من قرية تلكيف من نواحي الموصل رجلاً اسمهُ شمّاس صليوا (٢ وكان رجلاً فائقاً وادبياً وعالماً باللغة السريانيّة اي الكلدانية . فاحبّهُ واخذهُ عندهُ وعلّمهُ قواعد الايمان الكاثوليكي ورسمهُ قسّيساً وسمّاه باسمهِ يوسف (٣ . وبعد زمانٍ رسمهُ مطراناً

---

١) الكرزة الحثة لفظة سريانيّة . والكاروز الواعظ والخطيب

٢) صليوا على اللفظ الكلداني كصّليا

٣) هو يوسف الثاني الذي خلف يوسف الاوّل على كرسي بابل في آمد

لكي يكون لهُ معاوناً وخليفةً . ثم كثرت على مار يوسف البطريرك الاوجاع وقلَّ لا بل فُقد نظرُ عيونهِ وما بقي يبصر وذلك لسبب العذابات التي كان قاساها . فسلَّم امور الجماعة والكرسي الى خليفتهِ المذكور وقصد مدينة رومية لكي يقضي باقي عمرهِ بالعبادة في الاماكن المقدسة . وخرج من آمد اي ديار بكر في شهر اب سنة ١٦٩٤ للمسيح ووصل الى رومية العظمى بتعب ومشقات . وهنالك بشفاعة العذراء البتول انفتحت عيونهُ وشفي من اوجاعهِ وبدأ ينظر احسن من الاوَّل مثلما خبَّرنا في مكاتيبهِ بخط يدهِ كان يرسلها لمار يوسف الثاني وللحقير كاتب هذه ترجمة حياتهِ

وهنالك سعى بان يُثبِّت خليفتهُ مار يوسف الثاني بطريركاً ويأتيهِ البالیون (١ . كما في الحقيقة اناهُ البالیون وتثبت من السدة الرسوليَّة . وبعد ثلاث عشرة سنة من وصولهِ الى رومية تنيَّح بالرب البطريرك يوسف الاوَّل برائحة القداسة وقُبر في كنيسة مجمع انتشار الايمان المقدس وذلك في سنة ١٧٠٧ للمسيح . الرب يرحمنا بصلواتهِ المقبولة بشفاعة العذراء مريم عليها اشرف السلام وبشفاعة جميع القديسين . آمين

قد حرَّر هذهِ ترجمة مار يوسف الاول بطريرك الربان الشرقيين الكاثوليكيين اي الكلدان الحقير باسيليوس عبد الاحد معران آمد . والرب شاهد علينا انَّنا لم نتجاسر نكتب شيئاً زائداً . بل كلما سمعناهُ من فمهِ شفاهياً او من الشيوخ الذين كانوا شهود الحال وصارت الدعاوي في زمانهم وايامهم . وقد اقتصرنا في التحبير لئلا نحجز القارئين وقد حررناهُ في ٢٣ ايار الواقع في سنة ١٧١٩ للمسيح

الطائفة المارونيَّة والرهبانيَّة اليسوعيَّة

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

قيام سفارة الاب اياتو الثانية الى لبنان

وممَّا عُني بهِ الاب يوحنَّا اليانو في حلب قيامهُ بامر الكردينال سان سانقريتو

(١ البالیون (pallium) هو درع الرئاسة الذي يمنحهُ الحبر الاعظم لكبار رؤساء الكنيسة